الفصل الثانى
مراحل التوبة وشروطها

هى مراحل لأنها تأتى متتالية، ولها شروط لا تصح التوبة بدونها:

مرحلة العلم:

التائب من الذنب لابد أن يعرف ثلاثة أمور:

الأول: أنه إنسان، وكل بنى آدم خطاء.

الثانى: أن ربه واسع المغفرة والرحمة، وسريع الحساب.

الثالث: أنه ارتكب ذنبًا.

فإذا لم يعرف الأول سيصعب عليه الإنابة إلى الله والتوبة والاستغفار، وإن لم يعرف الثانى سيكون من القانطين من رحمة الله، وإذا لم يعرف الثالث سيهون عليه ما يفعل، ويزداد إثمًا وبغيًا وظلمًا، وسيحسب أنه يحسن صنعًا، وتزين له نفسه أعماله.

وفى الحالة الأولى: لنا فى توبة الرسل والأنبياء قدوة حسنة، ودراسة تاريخ البشر وعاقبة المفسدين فى الأرض، وهو أمر إلهى يقول تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران].

وفى الحالة الثانية: فإن العلم بصفات الله عز وجل وقدرته وحكمته، وكثرة قراءة القرآن، والتقرب إلى الله الرحيم، باب ميسر للعلم عن كيفية التوبة.

وفى الحالة الثالثة: فإن معرفة الذنوب وأنواعها وتصنيفاتها، والآيات التى تذكرها، والأحاديث التى تحذر منها، شفاء لما فى الصدور، ونور لطريق المؤمنة فى التوبة إلى الله ودوامها.

مرحلة الندم:

وهى الأسف والتحسر النفسى والقلبى والعقلى على ما ارتكب الإنسان من آثام، وكلما كان الندم أشد كلما كان تكفير الذنوب أرجى، يقول الرسول ﷺ: **«الندم توبة»**(١).

ويندم الإنسان على الذنب عندما يقتنع - تمام الاقتناع - بأنه ارتكب ذنبًا، وأنه أضر بنفسه وغيره، وأنه سيقع عليه عقاب شديد، وأنه لابد له من الرجوع عنه.

إنه أحس وأدرك الخطر الواقع عليه.

وتحتاج الأخت إلى كثير من التطهير النفسى، والبعد عن أهوائها وغواية الشيطان وحزبه، الذين يقللون هذا الإحساس بالأسف، ويزينون العمل السيئ لصاحبه.

وتحتاج إلى مجالسة الصالحين التوابين الأوابين لله؛ فهى تزيد رضا الإنسان عن نفسه عند التوبة، وتزيد من تحمله للحزن والأسى القلبى، الناتج عن الندم؛ فهو يتحمل مرارة الدواء من أجل الشفاء.

مرحلة الإقلاع عن الذنب، ورد الحقوق لأصحابها:

هى المرحلة الإيجابية فى التوبة، وهى مرحلة التغيير من طور إلى آخر، ومن حال إلى أخرى، وتظهر على الوجه والجسد، ويحسها القلب والروح، فتتحسن المشاعر والأحاسيس، وتستقيم الأمور ويتغير الأصحاب، ويتغير أسلوب الحياة والتعامل مع الناس، فتظهر بشاشة على الوجه ونور التوبة يحسه ويشاهده من يتعامل مع التائب، فتصفو البشرة ويصفو القلب، ويرد للناس مظالمهم، فيسعدوا باسترداد حقوقهم، وتزول الشحناء والبغضاء، وتزداد الألفة والمحبة بين الأطراف، التى كانت - ربما من لحظات - أعداء، فإذا بهم أولياء بعض.

ولنتذكر قول الله تعالى: ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ ﴾[فُصِّلَت].

كما تتطلب هذه المرحلة رد المظالم إلى أصحابها، وطلب الرضا منهم، والاعتذار والأسف إليهم بعد رد حقوقهم المسلوبة، والتى ربما انتفع بها المذنب، وحرم صاحبها منها مدة من

(١) الحاكم فى المستدرك (٤/٢٤٣) وصححه، ووافقه الذهبى، وصححه الشيخ الألبانى فى صحيح الجامع (٦٨٠٢).

الزمن، فإنها كذلك تتطلب فيما يتعلق بحقوق الله عز وجل، والفروض التى ضيعها المذنب، أن يؤديها قبل أن يدركه الموت أو المرض أو الفقر أو الشيخوخة.

فإذا لم تكن الفتاة تصلى الفروض، فيجب عليها أن تؤديها بعد كل صلاة، وإذا لم تكن حجت وهى مستطيعة، فيجب أن تؤدى فريضة الحج، وإذا لم تزكى، فتجتهد فى أداء الفريضة، وتكثر من الصدقات، وأن تؤدى حق الله فى مالها، وإن قصرت فى الصيام فعليها القضاء، وتتبع سنة الرسول ﷺ فى اختيار أفضل الأيام فى الصيام، فلا وصال فى الصوم، يعنى لا تصوم شهرًا كاملًا إلا رمضان، ولكن أحب الصيام إلى الله صيام داود عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يصوم يومًا ويفطر يومًا(١).

مرحلة العزم لعدم الرجوع للذنب:

وهى تعنى الجدية فى أمر التوبة إلى الله، وعقد النية الصادقة، مصممًا على العمل، وهى تتضمن الثبات والصبر والجد فى العمل، وأكثر الأخلاق ارتباطًا بالعزم فى الإسلام هو الصبر.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى]، وفى سورة لقمان: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان]، وفى سورة آل عمران: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران].

أسباب صعوبة مرحلة العزم:

- طبيعة الإنسان النسيان:

فربما وضع خطة ومشى فى جزء منها، ثم نسى أهدافه الأساسية، فضاع فى طرق عشوائية، ولم يصل لهدفه، وربما أقر واعترف بذنبه، وقرر عدم الرجوع إليه، ولكنه بعد معاودة حياته السابقة، يجد نفسه يكرر الخطأ دون أن يشعر، ثم ينسى اعترافه وندمه على الذنب فيما مضى.

يقول الله تعالى فى سورة طه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه].

- عدم التوكل على الله حق توكله:

فتعتقد الفتاة أن الله سيحسن لها أحوالها دون أن تعمل وتجتهد وتحسن العمل وتتقنه؛ مما

(١) البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤٢٠).

يؤدى إلى فقدان عنصر الجدية فى العزم، يقول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:١٥٩].

- ضعف التقوى:

مرحلة العزم تحتاج إلى تقوية تقوى الله وخشيته فى السر والعلن، والامتثال لأوامره واجتناب نواهيه، وامتثال طاعة الله ورسوله فى كل الأمور؛ فمثل هذا الأمر سيجعل التائبة فى حالة استقامة دائمة، فلا تتوب من ذنب لتقع فى ذنب آخر، ولا تقدم على صنع شىء فتضر نفسها أو غيرها، وتغضب أصحاب الأمر والفضل عليها؛ كالوالدين أو الزوج أو مدير العمل أو المعلم.

ولصعوبة هذه الاستقامة، نجد عظم الثواب فى الدنيا والآخرة، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَٰٓؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فُصِّلَت]. ويقول تعالى فى سورة النور: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور].

ويعطى الله هدية التقوى لكل من سار فى طريق الهداية، يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد].

– هى مرحلة تحمل المشاق والبلوى والأذى؛ لذلك فلابد ولا غنى عن الصبر فى مرحلة العزم.

ولذلك فإن الأجر من جنس العمل، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزُّمَر]، وفى سورة يوسف: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف]، وفى سورة الرعد: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد].

***